

الصغير من أهله والكبير . قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز ، وفي بعض الآثار أنها ماقرئت في بيت في ليلة فيصيه سرق أو آفة ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا بشر بن سيجان البصري ، حدثنا حرب بن ميمون ، حدثنا موسى بن عبيدة الزبيدي عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال : خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي ، أو يدي في يده ، فأنى على رجل رث الهيئة فقال « أي فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال : السقم والضر يا رسول الله ، قال « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ » قال : بلى ، ما يسرنى أن شهدت بها معك بدرًا أو أحدًا ، قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال « وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ » قال : فقال أبو هريرة : يا رسول الله إياي فعلمني ، قال « فقل يا أبا هريرة توكلت على الحلي الذي لا يموت ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدن ، وكبره تكبيراً » قال : فأنى على رسول الله ﷺ وقد حسنت حالي قال : فقال لي « مهيم » قال : قلت يا رسول الله لم أزل أقول الكلمات التي علمتني ، إسناده ضعيف ، وفي متنه نكارة ، والله أعلم . آخر تفسير سورة سبحان . والله الحمد والمنة .



[ذكر ماورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال]

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضباية أو سحابة قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال « اقرأ فلان ، فانها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن » أخرجه في الصحيحين من حديث شعبه به ، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير كما تقدم في تفسير سورة البقرة . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا هشام بن يحيى عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي « من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف » وقال : حسن صحيح .

[طريق أخرى] - قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة عن قتادة ؛ سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنه الدجال » ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، وفي لفظ النسائي « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره .

[حديث آخر] - وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد ، عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ أنه قال « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال » فيحتمل أن سالماً سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء . وقال أحمد : حدثنا حسين ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا ثوبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال « من قرأ أول سورة الكهف وآخرها ، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين السماء والأرض » انفرد به أحمد ولم يخرجوه ، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره بإسناد له غريب عن خالد بن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين » وهذا الحديث في رفعه نظر ، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سننه عن هشيم بن بشير عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق . هكذا وقع موقوفاً ، وكذا رواه الثوري عن أبي هاشم به من حديث أبي سعيد الخدري وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي بكر محمد بن المؤمل ؛ حدثنا الفضيل بن محمد الشعرائي ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا هشيم ، حدثنا أبو هاشم عن

أبي مجلز عن قيس بن عباد ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين » ثم قال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ؛ وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه عن الحاكم ؛ ثم قال البيهقي : ورواه يحيى بن كثير عن شعبة عن أبي هاشم باسناده أن النبي ﷺ قال « من قرأ سورة الكهف كما نزلت ، كانت له نوراً يوم القيامة » وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن عبد الله بن مصعب عن منظور بن زيد بن خالد الجهني ، عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة ، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلِتُجْمَلَ لَهُ عُجَابًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمده نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف ، بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً جليلاً نذيراً للكافرين ، بشيراً للمؤمنين ، ولهذا قال ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا ملاً ، بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال ﴿ قيميا ﴾ أي مستقيماً ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لمن خالفه وكأبه ولم يؤمن به ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وأجلة في الآخرة ﴿ من لدنه ﴾ أي من عند الله الذي لا يعذب عباده أحد ، ولا يوتق وثاقه أحد ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي هذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة ﴿ مآثين فيه ﴾ في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيه ﴿ أبداً ﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء .

وقوله ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ قال ابن إسحاق : وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله ﴿ ما لهم به من علم ﴾ أي هذا القول الذي افتروه واتفكوه ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كبرت كلمة ﴾ نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه كلمة . وقيل : على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة ، كما تقول : أكرم يزيد رجلاً ، قاله بعض البصريين ، وقرأ ذلك بعض قراء مكة : كبرت كلمة ، كما يقال عظم قولك وكبر شأنك ، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر ، فإن هذا تشبيح لمقاتلتهم واستعظام لانكهم ، ولهذا قال ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراءهم ، ولهذا قال ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ وقد ذكر محمد ابن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة ، فقال : حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبه بن أبي معيط إلى أجدادهم بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجوا حتى أتوا المدينة فسألوا أجداد اليهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، وقالوا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ؟ وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر وعقبه حتى قدما على قريش فقالوا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أجداد اليهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها ، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ، فسألوه عما أمرهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتكم عنه » ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرائيل عليه

السلام حتى أرجف اهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها ، لا نجبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به اهل مكة ، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معابته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله عز وجل ﴿ ويسألونك عن الروح ؟ قل الروح في الآية .

فَلَمَّا كَبَّرُوا وَبَجَعْتُمْ نَفْسَكُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنَّ لَكُمْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن كَانَ لَهُ الذِّهْنُ ۖ وَبَدَّأَ الْحَدِيثَ آسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ فَلَمَّا كَبَّرُوا وَبَجَعْتُمْ نَفْسَكُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنَّ لَكُمْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن كَانَ لَهُ الذِّهْنُ ۖ وَبَدَّأَ الْحَدِيثَ آسَفًا ﴿٦﴾
أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴿٨﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ وقال ﴿ فلكل باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ، ولهذا قال ﴿ فلكل باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ أسفاً ﴾ يقول : لا تملك نفسك أسفاً . قال قتادة : قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم ، وقال مجاهد : جزعاً ، والمعنى متقارب ، أي لا تأسف عليهم ، بل ابلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنا بضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ثم أخبر تعالى انه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار ، فقال ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ انه قال « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فانظروا ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » ، ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها ، فقال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرراً ﴾ أي وإنا لمصيروها بعد الزينة الى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيداً جرراً لا يثبت ولا يتنفع به .

كما قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وانا لجاعلون ما عليها صعيداً جرراً ﴾ يقول : يهلك كل شيء عليها ويبيد . وقال مجاهد : صعيداً جرراً بلقماً ، وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات ، وقال ابن زيد : الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا انا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وانا لجاعلون ما عليها صعيداً جرراً ﴾ يعني الأرض وان ما عليها لغان وبائد ، وان المرجع لآلى الله ، فلا تأس ولا يجزرك ما تسمع وترى .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنَّا أَنبِيَاءً عِجَابًا ﴿٦﴾

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرٍ نَارِسِدًا ﴿٧﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي

الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٨﴾ ثُمَّ نَبَّئْتَهُم بِعَمَلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِئُونَ أَمْرًا

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ، ثم بسطها بعد ذلك فقال : ﴿ أم حسبت ﴾ يعني يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليس امرهم عجبياً في قدرتنا وسلطاننا فان خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف ، كما قال ابن جريج عن مجاهد ﴿ أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك .

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ يقول : الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وقال محمد بن إسحاق : ما أظهرت من حججى على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم ؛ وأما الكهف فهو الغار في الجبل ، وهو الذي لجأ اليه هؤلاء الفتية

المذكورون ؛ وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس : هو واد قريب من أيلة ، وكذا قال عطية العوفي وقتادة . وقال الضحاك : أما الكهف فهو غار في الوادي ، والرقيم اسم الوادي ، وقال مجاهد : الرقيم كان بنيانهم ، ويقول بعضهم : هو الوادي الذي فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله الرقيم : كان يزعم كعب انها القرية ، وقال ابن جريج عن ابن عباس : الرقيم الجبل الذي فيه الكهف ، وقال ابن إسحاق عن عبد الله بن ابي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : اسم ذلك الجبل بنجلوس ، وقال ابن جريج : أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي ان اسم جبل الكهف بنجلوس ، واسم الكهف حيزم ، والكلب حمران . وقال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس قال : القرآن اعلمه الا حنانا والواوه والرقيم . وقال ابن جريج : أخبرني عمرو بن دينار انه سمع عكرمة يقول : قال ابن عباس : ما أدري ما الرقيم ؟ كتاب أم بنيان . وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس : الرقيم الكتاب . وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا في قصص اصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم الكتاب ، ثم قرأ : كتاب مرقوم . وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير ، قال : الرقيم فعيل بمعنى مرقوم ، كما يقال للمقتول قتل ، وللمجروح جريح ، والله اعلم . وقوله ﴿ إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لثلاث يقتنهم عنه فهربوا منهم فلجأوا الى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمة ولطفه بهم ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿ وهيء لنا من أمرنا رشدا ﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً أي اجعل عاقبتنا رشداً ، كما جاء في الحديث « وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً » وفي المسند من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ انه كان يدعو « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

وقوله ﴿ فضرنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴾ أي القينا عليهم النوم حين دخلوا الى الكهف فاناموا سنين كثيرة ، ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاما يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ، ولهذا قال ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ قيل : عددا ، وقيل : غاية ، فان الأمد الغاية ، كقوله :

سبق الجواد إذا استولى على الأمد

تَمَنَّ نَقْصُ عَلَيْنِكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ؕ أَمْشُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّ نَهْمُهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَّنَا عَلَي قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا

رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ أَشْطَطَّا ﴿١٤﴾ هَتُؤَلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

ءِ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَزْنَا لَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ

إِلَّا اللَّهَ فَأَنذَرْنَاهُمْ إِلَى الْكُهْفِ يَلْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْتِكُمْ لَكُمْ مِنْ أَمْرٍ مُرْفَقًا ﴿١٦﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً ، وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحلقة ، فآلمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم ، فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿ وزدناهم هدى ﴾ استدل هذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره من ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ كما قال ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ وقال ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وقال ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم ، فآله أعلم ؛ والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية ، فانهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود

بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم ، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحيار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح ، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية ، والله أعلم .

وقوله ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ومديتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فإنه ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم ، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ، ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس ، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك ، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض ، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية ، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم ، جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده ، وجاء الآخر فجلس إليها ، وجاء الآخر فجلس إليهم ، وجاء الآخر وجاء الآخر ، ولا يعرف واحد منهم الآخر ، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان .

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، والناس يقولون : الجنسية علة الضم ، والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء ، فلظهر كل واحد منكم بأمره ؛ فقال : آخر : أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ؛ وقال الآخر : وأنا والله وقع لي كذلك ؛ وقال الآخر كذلك ، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة ، فصاروا بداً واحدة ، وإخوان صدق ، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه ، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فألهم عن أمرهم وما هم عليه ، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها ﴾ ولن لنفي التأييد أي لا يقع منا هذا أبداً ، لانا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ، ولهذا قال عنهم ﴿ لقد قلنا إذا شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وهيتاناً «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آفة لولا يأتون عليهم سلطان بين﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ يقولون : بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك ، فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أب عليهم وتهدهم وتوعدهم ، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلمهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم ، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدنيهم من الفتنة ، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتنة في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه ، كما جاء في الحديث «يوشك أن يكون خير مال أحدهم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيها عداها ، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع ، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم ، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي وإذا فارتقموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ، ففارقومهم أيضاً بأديانكم ، ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يبسط عليكم رحمة بستركم بها من قومكم ﴿ ويهيئ لكم من أمركم ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مرفقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به ، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف فأووا إليه ، ففقدتهم قومهم من بين أظهرهم وتظلمهم الملك ، فيقال أنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبية محمد ﷺ ، وصاحبه الصديق حين لجأ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يبتدوا إليه مع أنهم يرون عليه ، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدمي لأبصرنا ، فقال «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» وقد قال تعالى ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ ففضة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، وقد قيل : إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دخلوه ، فقالوا : ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم ، فأمر

الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك ، وفي هذا نظر ، والله أعلم ، فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشياً ، كما قال تعالى :

﴿ وَرَى السَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ

مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُوَلِيًّا مَرَّشِدًا ﴿٧٧﴾

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال ، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذات اليمين﴾ أي يتقلص الفء ينة ، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ﴿تزاور﴾ أي تميل ، وذلك انها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ، ولهذا قال ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ أي تدخل إلى غارهم من شهاك بابه ، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيمة وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفء يميناً ولا شمالاً ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه إلى الغروب ، فتعين ما ذكرناه ، والله الحمد .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : تقرضهم تركهم ، وقد أخبر الله تعالى بذلك ، وأراد منا فهمه وتدبره ، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي ، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً ، فتقدم عن ابن عباس أنه قال : هو قريب من أيلة . وقال ابن اسحاق : هو عند نينوى . وقيل : ببلاد الروم . وقيل : ببلاد البلقاء ، والله أعلم بأي بلاد الله هو ، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه ، فقد قال ﷺ ما تركت شيئاً يفرىكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به فأعلمنا تعالى بصفته ، ولم يعلمنا بمكانه ؛ فقال ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم﴾ قال مالك عن زيد بن اسلم : تميل ﴿ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم ، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم ، قاله ابن عباس ﴿ذلك من آيات الله﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ذلك من آيات الله﴾ ، ثم قال ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ الآية ، أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ

عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتْ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿٧٨﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على أذانهم بالنوم ، لم تنطبق أعينهم لثلا يسرع إليها البلى ، فاذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ، ولهذا قال تعالى : ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ وقد ذكر عن الذئب انه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً ، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد ، كما قال الشاعر :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم
وقونه تعالى : ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ قال بعض السلف : يقبلون في العام مرتين . قال ابن عباس : لو لم يقبلوا لأكلتهم الأرض . وقوله ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : الوصيد الفناء ؛ وقال ابن عباس : بالباب . وقيل : بالصعيد وهو التراب ، والصحيح انه بالفناء وهو الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي مطبقة مغلقة ، ويقال : وصيد وأصيد ، ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب ؛ قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض بياهم كأنه يحوسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، كما ورد في الصحيح ولا صورة ولا جنب ولا كافر ، كما ورد به الحديث الحسن ؛ وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذه فائدة صحيحة الأخبار ، فإنه

صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل انه كان كلب صيد لاحدهم ، وهو الأشبه ، وقيل : كلب طباخ الملك ، وقد كان وافقهم على الدين وصحبه كلبه ، فالله أعلم .

وقد روى الخافظ ابن عساكر في ترجمة همام بن الوليد الدمشقي : حدثنا صدقة بن عمر الغساني ، حدثنا عباد المنقري ، سمعت الحسن البصري يقول : كان اسم كلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير ، واسم هدهد سليمان عليه السلام عنقز ، واسم كلب اصحاب الكهف قطمير ، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبده يهوت ؛ وهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدست بيسان ، والحية بأصفهان ، وقد تقدم عن شعيب الجبائي أنه ساء حمران ، واختلقت في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها ، بل هي مما ينهى عنه ، فان مستندها رجم بالغيب .

وقوله تعالى : ﴿لَوْ اطَّلَعْت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْت مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّتْ مِنْهُمْ رِعَابًا﴾ اي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هاهم لما ألبسوا من المهابة والذعر ، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة .

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيأتهم شيئاً وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كم لبثتم﴾ اي كم رقدتم ؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا ﴿أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ اي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم ، فالله أعلم ، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم الى الطعام والشراب ، فقالوا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ أي فضتكم هذه ، وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم اليها ، فتصدقوا منها وبقي منها ، فلهذا قالوا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ، والألف واللام للمعهد ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً﴾ أي أطيب طعاماً . كقولهم ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ وقوله ﴿قد أفلح من تزكى﴾ ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره ، وقيل : أكثر طعاماً ، ومنه زكا الزرع إذا كثر ، قال الشاعر :

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة والسبع أزكى من ثلاث وأطيب

والصحيح الأول ، لأن مقصودهم إنما هو الطيب الخلال سواء كان كثيراً أو قليلاً . وقوله ﴿وليتلطّف﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ، يقولون : وليلتطف كل ما يقدر عليه ﴿ولا يشعرن﴾ أي ولا يعلمن ﴿بكم أحداً﴾ * إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم ﴿أي إن علموا بمكانكم﴾ يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴿يعنون أصحاب دقبانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم ، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها ، أو يموتوا ، وإن وافقتهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال ﴿ولن تفلحوا إذا أبداً﴾ .

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُ عَن بَيْنِهِمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا

أَتَبَوَّأْتُم مِّنْ بَيْنِنَا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿وكذلك أعترننا عليهم﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة . وقال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، وذكروا أنه لما

أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه ، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة ، وذكروا أن اسمها دقوس ، وهو يظن أنه قريب العهد بها ، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة ، وتغيرت البلاد ومن عليها ، كما قال الشاعر :

أما الديار فانها كديارهم وأرى رجال الحى غير رجاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها ، ولا يعرف أحداً من أهلها : لا خواصها ولا عوامها ، فجعل يتحير في نفسه ويقول : لعل بي جنونا أو ما أو أنا حالم ، ويقول : والله ما بي شيء من ذلك ، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة . ثم قال : إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من النقفة ، وسأله أن يبيعه بها طعاماً ، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها ، فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون : لعل هذا وجد كنزاً ، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النقفة ، لعله وجدها من كنز وعن أنت ؟ فجعل يقول : أنا من أهل هذه البلدة ، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس ، ففسوه إلى الخنون ، فحملوه إلى ولي أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره ، وهو متحير في حاله وما هو فيه ، لما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم : دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل ، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، وأخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم ، وكان مسلماً فيما قبل ، واسمه يندوسيس ، ففرحوا به وأنسوه بالكلام ، ثم ودعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم ، وتوفاهم الله عز وجل ، فإله أعلم .

قال قتادة : غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بكهف في بلاد الروم ، فرأوا فيه عظماً فقال قائل : هذه عظام أهل الكهف ، فقال ابن عباس : لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة ، رواه ابن جرير . وقوله ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي كما أوردناهم وأيقظناهم ببياتهم ، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم ، وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين [أحدهما] أنهم المسلمون منهم . [والثاني] أهل الشرك منهم ، فإله أعلم ، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنقود ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ، لأن النبي ﷺ قال «لئن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مصالحاً مجرده» بخدر ما فعلوا ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق ، أمر أن يخفى عن الناس ، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده ، فيها شيء من الملاحم وغيرها .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ

كَلْبُهُمْ قُل ربي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمُ الْإِمْرَاءَ ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف ، فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فيلما قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فدل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر . وقوله ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا .

وقوله ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أي من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة . وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول أنا ممن استثنى الله عز وجل ويقول عدتهم سبعة . وقال ابن جرير : حدثنا يسار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا إسرائيل عن سهاك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ قال : أنا من القليل ، كانوا سبعة ؛ فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو موافق لما قدمناه .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجيج عن مجاهد قال : لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة سنة وضع الورق . قال ابن عباس : فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله ليكون ويستغيثون بالله ، وكانوا ثمانية نفر : مكسلمينا وكان أكبرهم وهو الذي كلم الملك عنهم ، وعليخا ومرطونس وكسطنوس وبيرونس وديموس ويطونس وقالوش ، هكذا وقع في هذه الرواية ، ويحتمل أن هذا من كلام ابن إسحاق ومن بينه وبينه ، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو ظاهر الآية ، وقد تقدم عن شعيب الجبائي أن اسم كلهم حمران ، وفي تسميتهم بهذه الاسماء واسم كلهم نظر في صحته ، والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى : ﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرًا﴾ أي سهلاً هيناً ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب ، أي من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

وَلَا تَقُولْنَ لِنَايَ إِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذْ أَنْسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي

لَأَقْرَبُ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل . علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ؛ كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «قال سليمان بن داود عليها السلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية : تسعين امرأة ، وفي رواية : مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقيل له - وفي رواية قال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فظاف بهم فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده ، لو قال إن شاء الله لم ينجت ، وكان دركا لحاجته» وفي رواية «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعين» وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف غداً أجيئكم» فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة ، فأغنى عن إعادته .

وقوله «واذكر ربك إذا نسيت» قيل معناه إذا نسيت الاستثناء ، فاستثنى عند ذكرك له ، قاله أبو العالية والحسن البصري ، وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في الرجل يحلف قال : له أن يستني ولو إلى سنة ، وكان يقول «واذكر ربك إذا نسيت» ذلك ، قيل للأعمش : سمعته عن مجاهد ؟ فقال : حدثني به ليث بن أبي سليم يرى ذهب كسائي هذا ، ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية عن الأعمش به . ومعنى قول ابن عباس أنه يستني ولو بعد سنة ، أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة ، فالسنة له أن يقول ذلك ، ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث ، قال ابن جرير رحمه الله ، ونص على ذلك لا أن يكون راقعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة ، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه ، والله أعلم .

وقال عكرمة «واذكر ربك إذا نسيت» إذا غضبت . وقال الطبراني : حدثنا محمد بن الحارث الجبلي ، حدثنا صفوان ابن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد العزيز بن حصين ، عن ابن أبي نجيج عن مجاهد عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا تَقُولْنَ لِنَايَ إِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ * واذكر ربك إذا نسيت» أن تقول إن شاء الله ؛ وروى الطبراني أيضاً عن ابن عباس في قوله «واذكر ربك إذا نسيت» الاستثناء فاستثنى إذا ذكرت ، وقال : هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستني إلا في صلة من يمينه ، ثم قال : انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ، ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى ، لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى ﴿وَمَا أَنْسَاتِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وذكر الله تعالى : يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله تعالى سبب للذكر ، ولهذا قال «واذكر ربك إذا نسيت» . وقوله «وقل عسى أن يهدينني ربِّي لأقرب من هذا رشداً» أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه ، فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك ، وقيل في تفسيره غير ذلك ، والله أعلم .

وَلَيْسُوا فِي كُفْهِمْ تَلَكَّ مِائَةً سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسَعًا ﴿٢٥﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أَبْصَرِيهِ وَأَسْمِعَ مَا لَهْرَمِن دُونِهِ مِنْ وَبِي وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ؛ فلهذا قال : بعد الثلاثمائة وازدادوا تسعاً . وقوله ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء ، بل قل في مثل هذا ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف .

وقال قتادة في قوله ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة ﴾ الآية ، هذا قول أهل الكتاب ، وقد رده الله تعالى بقوله ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ قال : وفي قراءة عبد الله وقالوا ﴿ ولبثوا ﴾ ، يعني أنه قاله الناس ، وهكذا قال قتادة ومطرف بن عبد الله ، وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر ، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ، يعنون بالشمسية ، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال : وازدادوا تسعاً ، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم ، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ، ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة ، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور ، فلا يجتج بها ، والله أعلم .

وقوله ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ أي أنه لبصر بهم سمع لهم . قال ابن جرير : وذلك في معنى المبالغة في المدح ، كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم روى عن قتادة في قوله ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وقال ابن زيد ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سمياً بصيراً . وقوله ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر ، الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير ، تعالى وتقدس .

وَأْتَلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلًا ﴿٦٧﴾

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل . وقوله ﴿ ولن نجد من دونه ملتحداً ﴾ عن مجاهد ملتحداً قال : ملجأ . وعن قتادة : ولأياً ولا مول . قال ابن جرير : يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ وقال ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ أي سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة .

وقوله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً ، من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، أو أقوياء ، أو ضعفاء ؛ يقال : إنها نزلت في أشرف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم ، وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه ، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك فقال ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية ، وأمره أن يبصر نفسه في الجلوس مع هؤلاء ؛ فقال ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية ؛ وقال مسلم في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن إسرائيل عن المقدم بن شريح عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجيئون علينا قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ، ورجلان نسبت

اسمها ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي النخاس قال : سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال : خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فأمسك ، فقال رسول الله ﷺ «قص ، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب» . وقال أحمد أيضاً : حدثنا هاشم : حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال : سمعت كردوس بن قيس ، وكان قاصن العامة بالكوفة ، يقول : أخبرني رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول «لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب» قال شعبة : فقلت أي مجلس ؟ قال : كان قاصاً . وقال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا محمد ، حدثنا يزيد بن أبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل ، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس ، فبلغت ستة وتسعين ألفاً وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل ، والله ما قال إلا ثمانية ، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن إسحاق الأهوازي ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا عمرو بن ثابت عن علي بن الأقرم ، عن الأغر أبي مسلم وهو الكوفي أن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف ، فلما رأى النبي ﷺ سكت ؛ فقال النبي ﷺ «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم» ، هكذا رواه أبو أحمد عن عمرو بن ثابت ، عن علي بن الأقرم ، عن الأغر مرسلًا . وحدثنا يحيى بن المعلل عن منصور ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا عمرو بن ثابت عن علي بن الأقرم ، عن الأغر أبي مسلم ، عن أبي هريرة وأبي سعيد ، قالوا : جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج ، أو سورة الكهف ، فسكت ، فقال رسول الله ﷺ «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون المرثي ، حدثنا ميمون بن سياه عن أنس بن مالك رضي الله عنه . عن رسول الله ﷺ قال «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات» ، تفرد به أحمد رحمه الله . وقال الطبراني : حدثنا إسماعيل بن الحسن ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب عن أسامة بن زيد ، عن أبي حازم ، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض آياته ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية ، فخرج يلتمسهم ، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمري أن أصبر نفسي معهم» عبد الرحمن هذا ، ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة ، وأما أبوه فمن سادات الصحابة رضي الله عنهم .

وقوله ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فَرْطًا﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ولا عباً لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال ﴿وَلَا تَعْدُنْ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَا رِبْكَ خَيْرًا وَأَبْقَى﴾ .

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا

يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وقل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي أرسدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي سورها . قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ أنه قال «لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة» وأخرجه الترمذي في صفة النار ، وابن جرير في تفسيره ، من حديث دراج أبي السمع به .

وقال ابن جريج : قال ابن عباس ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ قال : حائط من نار . قال ابن جرير : حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا : حدثنا أبو عاصم عن عبد الله بن أمية ، حدثني محمد بن حبي بن يعلى عن صفوان بن يعلى ، عن يعلى بن أمية قال : قال رسول الله ﷺ والبحر من جهنم قال : فقيل له كيف ذلك ؟ فقلنا هذه الآية ، أو قرأ هذه الآية ﴿نارا أحاط بهم سرادقها﴾ ثم قال والله لا أدخلها أبداً أو ما دمت حيا لا تصيبني منها قطرة ، وقوله ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية ، قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ مثل دردى الزيت ، وقال مجاهد : هو كالدم والقيح . وقال عكرمة : هو الشيء الذي انتهى حره . وقال آخرون : هو كل شيء أذيب . وقال قتادة : أذاب ابن مسعود شيئا من الذهب في أخدود ، فلما انما وأزبد ، قال : هذا أشبه شيء بالمهل . وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود ؛ وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر ، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها ، فهو أسود متن غليظ حار ، ولهذا قال ﴿يشوي الوجوه﴾ أي من حره ، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه .

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في سرادق النار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال «ماء كالمهل - قال - كعكر الزيت فإذا قرب به إليه سقطت فروة وجهه فيه» وهكذا رواه الترمذي في صفة النار من جامعه من حديث رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث ، عن دراج به ؛ ثم قال : لا نعرفه إلا من حديث رشدين ، وقد نكلم فيه من قبل حفظه هكذا ؛ قال : وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب ، عن ابن لبيعة ، عن دراج ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك وبقية بن الوليد ، عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الله بن بشر ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ في قوله ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ ، قال : «يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه ، يقول الله تعالى : ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾» . وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا ، فأغثوا بشجرة الرقوم فيأكلون منها ، فأجشتت جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم ، لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطر فيستغيثون ، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أذنه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب ، كما قال في الآية الأخرى ﴿وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم﴾ وقال تعالى ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي حارة ، كما قال تعالى : ﴿وبين حميم أن﴾ ﴿وساءت مرتفقا﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعا وموضعا للارتفاق ، كما قال في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقرا ومقاما﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الأنهار يَجْرُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خضراء من سُندسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ

وَحَسَنَتْ مَرْتَفَعًا ﴿٣١﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، ثم يذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيها جاءوا به ، وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن ، والعدن : والإقامة ، ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي من تحت غرفهم ومنازهم ، قال فرعون ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ الآية ، ﴿يجلون﴾ أي من الحلية ﴿فيها من أساور من ذهب﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ وفصله ههنا ، فقال ﴿ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق﴾ فالسندس ثياب رفيع رفاق كالمقصان وما جرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ الإنكاء قبل الإضطجاع ، وقبل التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد ههنا ، ومنه الحديث الصحيح «أما أنا فلا أكل متكئا» ، فيه القولان : والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير تحت الحجلة ، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة ، والله أعلم . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة ﴿على الأرائك﴾ قال : هي الحجال ، قال معمر وقال غيره : السرر في الحجال .

وقوله ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتفقاً ، أي حسنت منزلاً ومقبلاً ومقاماً ، كما قال في النار ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قولها ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ ، ثم ذكر صفات المؤمنين ، فقال ﴿أولئك يميزون الغرقة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ .

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتُمَا

بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ نَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا جِلْدَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ

لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم وهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين ، أي بساتين من أعناب ، محفوفتين بالنخيل ، المهدقة في جنباتها وفي خلاصها الزروع ، وكل من الأشجار والزروع ثمر مقبل في غاية الجودة ، ولهذا قال ﴿كلنا الجنتين أنت أكلها﴾ أي أخرجت ثمرها ، ﴿ولم نظلم منه شيئاً﴾ أي لم ننقص منه شيئاً ، ﴿وفجرنا جلداهما نهراً﴾ أي والأنهار متفرقة فيها ههنا وههنا ، ﴿وكان له ثمر﴾ قيل : المراد به المال ، روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة . وقيل : الثمار ، وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الأخرى ﴿وكان له ثمر﴾ بضم الراء وتسكين الميم ، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب . وقرأ آخرون ثمر بفتح الراء والميم ، فقال أي صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره ، أي يجادله ، ويخاصمه يفتخر عليه ويتراأس ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي أكثر خدماً وحشياً وولداً . قال قتادة : تلك والله أمنية الفاجر ، كثرة المال وعزة النفر . وقوله ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار ، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ، ظن أنها لا تنفى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ، وذلك لقله عقله ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابيه بالحياة الدنيا وزينتها ، وكفره بالآخرة ، ولهذا قال ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي كائنة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ وقال ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً﴾ أي في الدار الآخرة تألى على الله عز وجل . وكان سبب نزولها في العاص بن وائل ، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا

﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَاقُوَةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ سَرَنْتَا

أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعٌ صَعِيدًا

زَلْفًا ﴿٤٠﴾ وَأُصْبِحُ مَاؤها غورًا فلن تستطيع لِم طلبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أحابه به صاحبه المؤمن ، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ الآية ، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه ، وابتداء خلق الإنسان من طين وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، كما قال تعالى : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ الآية ؛ أي كيف تمجدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جليلة ، كل أحد يعلمها من نفسه ، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات ، لأنه بمثابة ، فعلم إسناد إيجادها إلى

خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء ؛ ولهذا قال المؤمن ﴿لكننا هو الله ربّي﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقاتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ، ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له .

ثم قال ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً﴾ هذا تخصيص وحث على ذلك ، أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك ، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده ، فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ؛ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة . وقد روي فيه حديث مرفوع ، أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا جراح بن مخلد ، حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عيسى بن عون ، حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد ، فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » وكان يتأول هذه الآية ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدي : عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة وحجاج ، حدثني شعبة عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مول أبي رهم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة ؟ لا قوة إلا بالله » تفرد به أحمد . وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال « ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال الإمام أحمد : حدثنا بكر بن عيسى ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بلخ عن عمرو بن ميمون قال : قال أبو هريرة : قال لي رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة تحت العرش ؟ » قال : قلت نعم فذاك أبي وأمي . قال « أن تقول لا قوة إلا بالله » قال أبو بلخ : وأحسب أنه قال « فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم » قال : فقلت لعمرو : قال أبو بلخ : قال عمرو : قلت لأبي هريرة لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال : لا إنها في سورة الكهف ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ .

وقوله ﴿فمسي ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبعد ولا تفتى ﴿حسباناً من السماء﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري : أي عذاباً من السماء ، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ، ولهذا قال ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ أي يلقأ تراباً أملس لا يثبت فيه قدم ، وقال ابن عباس : كالجوز الذي لا يثبت شيئاً ، وقوله ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً في الأرض ، وهو ضد النابح الذي يطلب وجه الأرض ، فالغائر يطلب أسفلها ، كما قال تعالى : ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ أي جار وسائح ، وقال ههنا ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ والغور مصدر بمعنى غائر ، وهو أبلغ منه ؛ كما قال الشاعر :

تظل جباهه نوحاً عليه

تقلده أعتتها صفواً

بمعنى نائحات عليه .

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ، فَأَصْبَحَ بِقَلْبِ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿١٤﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ

فِتْنَةً يَبْصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿١٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عِقَابًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ﴿وأحيط بشمره﴾ بأمواله أو بشاره على القول الآخر ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يجذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسين على جنته التي اغتربها وألته عن الله عز وجل ﴿فأصبح بقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ وقال قتادة : يصفق كفيه متناسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ ولم تكن له فتنة أي عشيرة أو ولد (له) ، كما افتخر بهم واستعز ﴿ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾ هنالك الولاية لله الحق ﴿اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله ﴿وما كان منتصراً هنالك﴾ أي في ذلك الوطن الذي حل به عذاب الله ، فلا منقذ له منه ، وينتدى بقوله ﴿الولاية لله الحق﴾ ومنهم من يقف على ﴿وما كان منتصراً﴾ وينتدى بقوله ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ ثم اختلفوا في قراءة الولاية ، فمنهم من فتح الواو من الولاية ، فيكون المعنى هنالك الموالة لله ، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله ﴿قلنا أرأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ وقوله إخباراً عن فرعون ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو

إسرائيل وأنا من المسلمين • الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين • ومنهم من كسر الروا من الولاية ، أي هنالك الحكم لله الحق ، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية ، كقوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله عز وجل ، كقوله ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي جزاء ﴿ خير عقاباً ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل ، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ حُشْبًا مَذْرُوءًا الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١٨﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿١٩﴾

يقول تعالى : ﴿ واضرب ﴾ يا محمد للناس ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿ كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي ما فيها من الحب ، فشب وحسن ، وعلاه الزهر والنور والنضرة ، ثم بعد هذا كله ﴿ أصبح هشيماً ﴾ يابساً ﴿ تذرؤه الرياح ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ، ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال ، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾ الآية ، وقال في الزمر ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ الآية ؛ وقال في سورة الحديد ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ الآية ؛ وفي الحديث الصحيح « الدنيا خضرة حلوة » وقوله ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب ﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم ، والجمع لهم ، والشفقة المفرطة عليهم ، ولهذا قال ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وقال عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : الباقيات الصالحات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ رواه الإمام أحمد ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا حيوة ، حدثنا أبو عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : جلس عثمان يوماً وجلستنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا بماء في إناء أظنه سيكون فيه مد ، فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ، ثم قال « من توضأ وضوئي هذا ، ثم قام فصل صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح : ثم صل العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صل المغرب غفر له ما بينها وبين العصر ، ثم صل العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم ان قام فتوضأ وصل صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات » قالوا هذه الحسنات ، فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال لا إله إلا الله ، سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، تفرد به .

وروى مالك عن عمارة بن عبد الله بن صياد عن سعيد بن المسيب قال : الباقيات الصالحات : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال : سألتني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات ؛ فقلت : الصلاة والصيام ، فقال لم تصب ؛ فقلت الزكاة والحج ؛ فقال : لم تصب ، ولكنهن الكلمات الخمس : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقال ابن جريج : أخبرني عبد الله بن عثمان بن خيثم عن نافع بن سرجس إنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن الباقيات الصالحات . قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ قال ابن جريج وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك .

وقال مجاهد : الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة في قوله ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، وسبحان الله ، من الباقيات الصالحات ؛ قال ابن جرير : وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار ، عن أبي نصر التمار عن عبد العزيز بن مسلم ، عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، من الباقيات الصالحات » قال : وحدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال « استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل : وما من يا رسول الله قال « الملة » قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهكذا رواه أحمد من حديث دراج به .

قال ابن وهب : أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله حدثه قال : أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي في حاجة ، فقال : قل له إلقني عند زاوية القبر ، فإن لي إليك حاجة ، قال : فالتقيا فسلم أحدهما على الآخر ، ثم قال سالم : ما تعد الباقيات الصالحات ؟ فقال : لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال له سالم : متى جعلت فيها لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ قال : ما زلت أجعلها ، قال : فراجعه مرتين أو ثلاثاً فلم ينزع ، قال : فأبيت ؟ قال سالم : أجل فأبيت ، فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول « عرج بي إلى السماء فرأيت إبراهيم عليه السلام ، فقال : يا جبريل من هذا الذي معك ؟ فقال : محمد ، فرحب بي وسهل ، ثم قال : مر امتك فلتكثر من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة ، فقلت : وما غراس الجنة فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن يزيد عن العوام ، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء ، ثم قال : « أما أنه سيكون بعدي امراء يكذبون ويظلمون ، فمن صدقهم بكذبهم ومالاهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم ، فهو مني وأنا منه . ألا وإن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، من الباقيات الصالحات » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبان ، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد عن أبي سلام ، عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يخ يخ لخمس ما اثقلهن في الميزان : لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده - وقال - يخ يخ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن دخل الجنة : يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وبالبعث بعد الموت ، وبالْحساب » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية ، قال : كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر ، فنزل منزلاً فقال لغلامه : اثنا بالشفرة نعبت بها ، فأنكرت عليه ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتي هذه ، فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » ثم رواه أيضاً النسائي من وجه آخر عن شداد بنحوه .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العوفي ، حدثني أبي ، حدثنا عمر بن الحسين عن يونس بن نفع الجدي ، عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال : كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف ، فخرجت من أعلى الطائف من السراة غدوة ، فأبيت منى عند العصر ، فتصاعدت في الجبل : ثم هبطت فأبيت النبي ﷺ ، فأسلمت وعلمني ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿إذا زلزلت﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال « من الباقيات الصالحات » وبهذا الإسناد « من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه ، ثم قال سبحان الله مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة ، والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة ، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل » وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال : هي ذكر الله قول لا إله إلا الله ، والله أكبر وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام ، والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في

الجنة ما دامت السموات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ بَوَيْلْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا
حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام ، كما قال تعالى : ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ وتسير الجبال سيرا﴾ أي تذهب من أماكنها وتزول ، كما قال تعالى : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ وقال تعالى : ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقال ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾ فيذرها قاعا صافيا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا﴾ يذكر تعالى أنه تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعا صافيا ، أي سطحا مستويا لا عوج فيه ولا أمثا ، أي لا وادي ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيه معلم لأحد ، ولا مكان يوارى أحدا ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقتادة ﴿وترى الأرض بارزة﴾ لا حجر فيها ولا غيابة قال قتادة : لا بناء ولا شجر .

وقوله ﴿وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا ، كما قال ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ وقال ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ . وقوله ﴿وعرضوا على ربك صفا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفا واحدا ، كما قال تعالى : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفا ؛ كما قال ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ وقوله ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ هذا تفرغ للمتكلمين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطبا لهم ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

وقوله ﴿ووضع الكتاب﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفنيل والقطمير ، والصغير والكبير ، ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرط في أعمارنا ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا ولا عملا وإن صغر ، إلا أحصاها ، أي ضبطها وحفظها . وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفرا من الأرض ليس فيه شيء ؛ فقال النبي ﷺ ﴿إجمعا من وجد عودا فليات به ، ومن وجد حطبيا أو شيئا فليات به﴾ قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاما ، فقال النبي ﷺ ﴿أترون هذا ؟ فذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فإنها محصاة عليه﴾ .

وقوله ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾ أي من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ وقال تعالى : ﴿ويوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر المخبات والظواهر . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال ﴿لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به﴾ أخرجه في الصحيحين ، وفي لفظ يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته ، يقال هذه غدرة فلان بن فلان .

وقوله ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعا ، ولا يظلم أحدا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم ، قال تعالى : ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ الآية ؛ وقال ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا - إلى قوله - حاسين﴾ والآيات في

هذا كثيرة وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي ﷺ ، فاشترت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً ، فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ؛ فقال : ابن عبد الله ؟ قلت نعم ، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلاً بهما » قلت ، وما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، ثم يتناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أنقضيه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أنقضيه منه حتى اللطمة ، قال : قلنا كيف وإنما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً بهما ؟ قال : « بالحسنات والسيئات » .

وعن شعبة عن العوام بن مزاحم عن أبي عثمان عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الجماء لتنقص من القرآن يوم القيامة » رواه عبد الله بن الإمام أحمد ، وله شواهد من وجوه آخر ، وقد ذكرناها عند قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » وعند قوله تعالى : « إلا أتم أمثالكم ما نرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » .

وَأَذَقْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَتَّخَذُوا وَدُرَّتُهُمْ وَآلِيَاءَ
مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا

يقول تعالى مبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالفه ومولاه ، وهو الذي أنشأه وابتداه وبألفه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله وإلى إبليس وعادى الله ؛ فقال تعالى : « وإذ قلنا للملائكة أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة « اسجدوا لآدم » أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم ، كما قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » . وقوله « فسجدوا إلا إبليس كان من الجن » أي خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتسلك ، فلهدا دخل في خطايهم وعصى بالمخالفة ، وبه تعالى ههنا على أنه من الجن أي على أنه خلق من نار ، كما قال « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفه عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر ، رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه .

وقال الضحاك عن ابن عباس : كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن ، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وكان اسمه الحارث ، وكان خازناً من خزان الجنة ، وخلق الملائكة من نور غير هذا الحي ، قال : وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار ، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا تهتت . وقال الضحاك أيضاً عن ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض ، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء ، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله ، واستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم « فاستكبر وكان من الكافرين » .

قال ابن عباس قوله « كان من الجن » أي من خزان الجنان ؛ كما يقال للرجل مكي ومدني وبصري وكوفي . وقال ابن جريج عن ابن عباس نحو ذلك ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : هو من خزان الجنة ، وكان يدبر أمر السماء الدنيا ، رواه ابن جرير من حديث الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد به . وقال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا ، وقال ابن اسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب العصية من الملائكة اسمه عزازيل ، وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً ، فذلك دعاه

إلى الكبير، وكان من حي يسمون جنأ .

وقال ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال : إن من الملائكة قبيلة من الجن ، وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض ، فعصى ، فسخط الله عليه فمسخه شيطانا رجيباً ، لعنه الله مسوخاً ، قال : وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه ، وإذا كانت في معصية فارجه ؛ وعن سعيد بن جبير أنه قال : كان من الجنائين الذين يعملون في الجنة ؛ وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الاسرائيليات التي تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ؛ ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدنا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس هم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهادة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث ، وحرروه وبيتوا صحيحه من حسنة من ضعيفه من منكره ، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال ، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل .

وقوله ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله ، فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعيث والفساد ، ثم قال تعالى مقرباً ومربحاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ الآية ؛ أي بدلاً عني ، ولهذا قال ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون - إلى قوله ألقم تكونوا تعقلون﴾ .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير ، كما قال ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم ظهير﴾ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴿الآية ؛ ولهذا قال ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال مالك : أعواناً .

﴿يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ

﴿فَطَنُوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عما يحاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً ﴿نادوا شركائهم الذين زعمتم﴾ أي في دار الدنيا ادعواهم اليوم يقدوكم مما أنتم فيه كما قال تعالى : ﴿ولقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ وقوله ﴿فدعواهم فلم يستجيبوا لهم﴾ كما قال ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعواهم فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية ، وقال ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾ الآيتين ، وقال تعالى : ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ وقوله ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال ابن عباس وقناة وغير واحد : مهلكاً ، وقال قناة : ذكر لنا أن عمر البكائي حدث عن عبد الله بن عمرو قال : هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة . وقال قناة : موبقاً وادياً في جهنم .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن سنان القزاز ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا يزيد بن زريع ، سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى : ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال : واد في جهنم من قيح ودم ، وقال الحسن البصري : موبقاً عداوة ،

والظاهر من السياق هنا أنه المهلك ، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره ، والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى أهلكهم التي كان يزعمون في الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير في قوله بينهم عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به ، فهو كقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ وقال ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم - إلى قوله - وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . وقوله ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي أنهم لما عابنوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ﴿ فإذا رأى المجرمون النار ﴾ تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز . وقوله ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها . قال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة » . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة ، كما لم يعمل في الدنيا ، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة » .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدلاً ﴿٥١﴾

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة المعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو البيان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ؛ أخبرني علي بن الحسين أن حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرده وطاقمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ، فقال « ألا تصليان ؟ » فقلت : يا رسول الله إنما أنفشنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ أخرجه في الصحيحين .

وَمَا مَنَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤْمَرُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا

﴿٥٢﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَمْبِثِّرِينَ وَبُنْدُودِينَ وَمُجَدِّدِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا

عَائِيَتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُؤًا ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منهم من اتبع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ، كما قال أولئك لنبيهم ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ وآخرون قالوا ﴿ اتتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وقالت قريش ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ماتنا تينا باللائكة إن كنت من الصادقين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك .

ثم قال ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ، ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي يروونه عياناً مواجهة ومقابلة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنتذرين ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم ، ومنتذرين لمن كذبهم وخالفهم ، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿ يجادلون بالباطل ليدحضوا به ﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ، ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ هزواً ﴾ أي سخروا منهم

في ذلك وهو أشد التكذيب .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا^{٥٧}

إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ

الْفُورُورُ وَالرَّحْمَةُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى : وأي عباد الله أظلم ممن ذكر آيات الله فأعرض عنها ، أي تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالاً ، ﴿ونسي ما قدمت يدها﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة ، ﴿إننا جعلنا على قلوبهم﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿أكِنَّة﴾ أي غطية وغطاوة ﴿أن يفقهوه﴾ أي لثلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا﴾ .

وقوله ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿ولو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾ كما قال ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ وقال ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ والآيات في هذا كثيرة شتى ؛ ثم أخبر أنه يجلم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال ﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل . وقوله ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية ، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ، ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين ، لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ، ولستم بأعز علينا منهم ، فخافوا عذابي ونذر .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا آتِبِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا

مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَيْلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءٌ لَّأَلْقَىٰ لَيْسَانَ مِنْ سَفَرِنَا

هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَيْلُهُ

فِي الْبَحْرِ عَجْبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ

عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سبب قول موسى لفتناه وهو يروى بن نون ، هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى ، فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتناه ذلك ﴿لا أبرح﴾ أي لا أزال سائراً ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين . قال الفرزدق :
فما برحوا حتى تهادت نساؤهم بسطحاء زبي قارعسات السلطانم
قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي الشرق ، وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظي :
مجمع البحرين عند طنجة ، يعني في أقصى بلاد المغرب ، فالله أعلم . وقوله ﴿أو أمضي حقباً﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان . قال ابن جرير رحمه الله : ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب في لغة قيس سنة ؛ ثم روي عن عبد الله ابن عمرو أنه قال : الحقب ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريفاً . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿أو أمضي حقباً﴾ قال : دهرًا ، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك .

وقوله ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ؛ وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة ، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هنالك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء ، فاضطرب وكان في مكثل مع يوشع عليه السلام ، وظفر من المكثل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتصق بعده ، ولهذا قال تعالى : ﴿واتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ أي مثل السرب في الأرض . قال ابن جريج : قال ابن عباس : صار أثره كأنه حجر . وقال العوفي عن ابن عباس : جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يمس حتى يكون صخرة . وقال محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير مكان الحوت الذي فيه ، فانجاب كالكوء حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه ، فقال ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ وقال قتادة : سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك طريقاً فيه إلا صار ماء جامداً .

وقوله ﴿فلما جاوزا﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه ، كقوله تعالى : ﴿يخرج منها اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من المالح على احد القولين ، فلما ذهب عن المكان الذي نسيه فيه مرحلة ﴿قال﴾ موسى ﴿لقتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا﴾ أي الذي جاوز فيه المكان ﴿نصباً﴾ يعني تعباً ﴿قال أريت إذ أوتينا إلى الصخرة فإن نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ قال قتادة : وقرأ ابن مسعود أن أذكره ، ولهذا قال ﴿فاتخذ سبيله﴾ أي طريقه ﴿في البحر عجا قال ذلك ما كنا نبغ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿فارتدا﴾ أي رجعا ﴿على آثارهما﴾ أي طريقهما ﴿قصصاً﴾ أي يقصان آثار مشيها ويقفوان أثرهما ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

قال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرني سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ، ليس هو موسى صاحب ابن إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً يجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكثل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ؛ فأخذ حوتاً فجعله بمكثل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت في المكثل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه أن يجبره بالحوت ، فانطلقا ببقية يومهما وليتها حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، قال له فتاه ﴿أريت إذ أوتينا إلى الصخرة فإن نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال : قال : فكان الحوت سرباً ، ولم يسه فتاه عجباً ، فقال ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسح بشوب ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأن بأرضك السلام . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم قال أنتيك لتعلمني بما علمت رشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ قال له الخضر ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ .

فانطلقا بمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من اللوح السفينة بالقدم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفيتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم - فكانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة فبينما هما بمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتله بيده فقتله ، فقال له موسى ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي

صبراً قال : وهذه أشد من الأولى ، ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ أي مائلاً ، فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لا اتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بيني وبينك سأنينك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ فقال رسول الله ﷺ «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ ﴿ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ﴾ وكان يقرأ ﴿ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين ﴾ .

ثم رواه البخاري عن قتبية عن سفيان بن عيينة فذكر نحوه ، وفيه : فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعها الخوت ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام ، قال سفيان : وفي حديث عن عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الخوت من ماء تلك العين ، فتحرك وانسل من المكمل فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفتاه ﴿ آتنا غداءنا ﴾ قال : وساق الحديث ، ووقع عصفور على حرف السفينة ، فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرني يعلى ابن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير ، يزيد أحدهما على صاحبه ، وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس في بيته ، إذ قال سلوني ، فقلت : أي أبا عباس جعلني الله فداك ، بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل ، أما عمرو فقال لي قال : كذب عدو الله وأما يعلى فقال لي قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ «موسى رسول الله ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورتقت القلوب ولى ، فأدركه رجل فقال : أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال لا : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله . قيل : بل ، قال أي رب ، وأين ؟ قال : بمجمع البحرين ، قال : أي رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به . قال لي عمرو : قال حيث يفارقك الخوت ، وقال لي يعلى : خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح ، فأخذ حوتاً فجعله في مكمل فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تحبني بحيث يفارقك الخوت ، قال : ما كلفت كبيراً ، فذلك قوله ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ يوشع ابن نون ليست عند سعيد بن جبير ، قال : فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ يضرب الخوت وموسى نائم ، فقال فتاه ، لا أوقفه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، ويضرب الخوت حتى دخل في البحر فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كان أثره في حجر ، قال : فقال لي عمرو : هكذا كان أثره في حجر ، وحلق بين إبهاميه واللتين لتيها ، قال : ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً ﴾ قال : وقد قطع الله عنك النصب ، ليست هذه عند سعيد بن جبير ؛ أخبره فرجعاً فوجدا خضراً قال : قال عثمان بن أبي سليمان : على طنفسة خضراء على كبد البحر ، قال سعيد بن جبير : مسجى بثوب قد جعل طرفه تحت رجله وطرفه عند رأسه ، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : فإي شأنك ؟ قال : جئتكم لتعلمني عما علمت رُشداً ، قال : أما يكفيك أن التوراة بيدك وأن الوحي يأتيك يا موسى ، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه ، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ، حتى إذا ركبا في السفينة وجدا معاير صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر ، عرفوه فقالوا : عبد الله الصالح ، قال : فقلنا لسعيد بن جبير خضر ، قال : نعم لا نحمله بأجر ، فخرقها ووتد فيها وتدا ، قال موسى ﴿ أخرجتها لتفرك أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ ﴾ قال مجاهد : منكراً ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ، كانت الأولى نسياناً ، والثانية شرطاً ، والثالثة عمداً ، قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا ترهقني من أمري عسراً ، فانطلقا حتى لقياً غلاماً فقتله ، قال يعلى ، قال سعيد : وجد غلاماً يلعبون ، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ؛ فقال أقتلت نفساً زكية لم تعمل الحنت ؟ وابن عباس قرأها زكية مسلمة كقولك غلاماً زكياً ، فانطلقا فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال : بيده هكذا ودفع بيده فاستقام ، قال : لو شئت لا اتخذت عليه أجراً ، قال يعلى : حسبك أن سعيداً قال : ففسحه بيده فاستقام ، قال : لو شئت لا اتخذت عليه أجراً ، قال سعيد : أجراً نأكله ، وكان وراءهم ملك ، وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس : أمامهم ملك يزعمون ، عن غير سعيد ، أنه هدد بن بدد ، والغلام المقتول اسمه يزعمون حيسور ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، فأردت إذا هي مرت به أن بدعها بعبيها ، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها ، منهم من يقول سدوها بقارورة ، ومنهم من يقول بالفار ، كان أبواه مؤمنين ، وكان هو كافراً ، فحشينا أن يرهقها طغياناً وكفراً

أن يجعلها حبه على أن يتابعه على دينه ، فأردنا ان يدها ربهما خيراً منه زكاة ، كقوله ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ ، وقوله ﴿وأقرب رحماً﴾ هما به أرحم منها بالأول الذي قتل خضر ، وزعم غير سعيد بن جبير انها أبداً جارية ، وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : انها جارية .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أبي اسحاق عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : خطب موسى عليه السلام بني إسرائيل فقال : ما أحد أعلم بالله وبأمره مني ، فأمر أن يلقي هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان ، والله أعلم . وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمار ، عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : أبا العباس إن نوافين امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العلم إنما هو موسى بن ميثا ، قال سعيد : فقال ابن عباس : أنوف يقول هذا يا سعيد ؟ فقلت له : نعم أنا سمعت نوناً يقول ذلك ، قال : أنت سمعته يا سعيد ؟ قال : نعم ، قال : كذب نون .

ثم قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه ، فقال أي رب إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلي عليه ؟ فقال له : نعم في عبادي من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه ، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح ، قد قيل له : إذا حيي هذا الحوت في مكان ، فصاحك هنالك وقد أدركت حاجتك ، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه ، فسار حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة والى ذلك الماء ، وذلك الماء ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي ، فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي ، فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، فانطلقا فلما جاوزا النقلة قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال الفتى وذكر : رأيت إذ أويتنا الى الصخرة ، فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً ، قال ابن عباس فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها ، فإذا رجل متلفف في كساء له ، فسلم موسى عليه فرد عليه السلام ، ثم قال له : ما جاء بك إن كان لك في قومك لشغل ؟ قال له موسى : جئت لتعلمني بما علمت رشداً . قال : إنك لن تستطيع معي صبرا ، وكان رجلاً يعلم علم الغيب ، قد علم ذلك ، فقال موسى : بلى . قال ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ أي إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم ﴿قال مستجدي إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ وإن رأيت ما يخالفني ، قال ﴿فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء﴾ وإن أنكرته ﴿حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا يمسيان على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتمسان من يجعلهما ، حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن شيء أحسن ، ولا أجمل ولا أوثق منها ، فسأل أهلها أن يحملوهما فحملوهما ، فلما اطمانا فيها ولجت بهما مع أهلها ، أخرج منقاراً له ومطرقة ، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقتها ، ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ، ثم جلس عليها يرقعها ؛ فقال له موسى ورأى أمراً أظن به ﴿أخرقتها لتفريق أهلها لقد جئت شيئاً فإمرأ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ؟ قال لا تؤاخذني بما نسيت ﴿أي بما تركت من عهدك﴾ ولا ترهقني من أمري عسراً ﴿ثم خرجا من السفينة ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ، فإذا غلمان يلعبون خلفها ، فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أطرف منه ، ولا أترى ولا أوضاً منه فأخذه بيده وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمهغه فقتله ، قال : فرأى موسى أمراً فظيماً لا صبر عليه ، صبي صغير قتله لا ذنب له ، قال ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ أي صغيرة ﴿بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدي عذراً ﴿أي قد أعذرت في شأن﴾ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعنا أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴿فهدهم ثم قعد بينه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف وما ليس عليه صبر فأقامه ، قال ﴿لو شئت لآخذت عليه أجراً﴾ أي قد استطعناهم فلم يطعمونا وضمناهم فلم يضيفونا ، ثم قعدت تعمل من غير صنعة ، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله ، قال ﴿هذا قراق ببني وبينك سائبك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعييبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴿وفي قراءة أبي بن كعب﴾ كل سفينة صالحة ﴿وإنما عتبتا لأرده عنها ، فسلمت منه حين رأي العيب الذي صنعت بها ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغياناً وكفراً ، فأردنا ان يدها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي ما فعلته عن نفسي ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فكان ابن عباس يقول ما كان الكثر إلا علماً ، وقال عوف بن ابن عباس قالاً : لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر ، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله أن ذكرهم بأيام الله ، فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة ، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون ، وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله في

الأرض ، وقال كلم الله نبيكم تكليما واصطفاني لنفسه ، وأنزل علي عجة منه ، وآتاكم الله من كل ما سألتموه ، فنيبكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعم الله عليهم إلا وعرفهم إياها ؛ فقال له رجل من بني إسرائيل : هم كذلك يا نبي الله قد عرفنا الذي تقول : فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال لا . فبعث الله جبرائيل إلى موسى عليه السلام فقال إن الله يقول : وما يدريك أين أضع علمي ، بل إن لي على شط البحر رجلا هو أعلم منك . قال ابن عباس : هو الخضر ، فسأل موسى ربه إن يريه إياه ، فأوحى إليه أن اثت البحر ، فإنك تجد على شط البحر حوتا ، فخذه فادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطئ البحر ، فإذا نسيت الحوت وهلك منك ، فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب . فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه سأل فتاه عن الحوت ، فقال له فتاه وهو غلامه ﴿أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ لك ، قال الفتى : لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سربا فأعجب ذلك ، فرجع موسى حتى أتى الصخرة ، فوجد الحوت ، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى ، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت ، وجعل الحوت لا يس شيئا من البحر إلا يس عنه الماء حتى يكون صخرة ، فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر فلقى الخضر بها ، فسلم عليه فقال الخضر : وعليك السلام ، وأنى يكون السلام بهذه الأرض ، ومن أنت ؟ قال : أنا موسى . قال الخضر صاحب بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، فرحب به وقال : ما جاء بك ؟ قال جئتك ﴿على أن تعلمني مما علمت رشدا﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿يقول : لا تطيق ذلك ، قال ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ قال : فانطلق به ، وقال له : لا تسألني عن شيء اصنعه حتى آبين لك شأنه ؛ فذلك قوله ﴿حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ .

وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هو والحري بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس : هو الخضر ، فمر بها أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿بيننا موسى في ملا من بني إسرائيل إذ جاءه رجل ، فقال : تعلم مكان رجل أعلم منك ؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى موسى ، بل عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال فتى موسى لموسى : أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، قال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا﴾ فوجدا عبدنا خضرا ، فكان من شأنها ما قص الله في كتابه .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ

مَا لَمْ نَحْمِطْ بِهِ صَبْرًا ﴿١٨﴾ قَالَ مَسْتَجِدِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿١٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ

حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر ، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قال له موسى هل أتبعك﴾ سؤال تطلق لا على وجه الأزام والاجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله ﴿أتبعك﴾ أي أصحبك وأرافقك ﴿على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾ أي مما علمك الله شيئا أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح ، فعندها ﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتني لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله ما علمك الله ، وأنت على علم من علم الله ما علمته الله ، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾ فإنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصالحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك ﴿قال﴾ أي موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا﴾ أي على ما أرى من أمورك ﴿ولا أعصي لك أمرا﴾ أي ولا أخالفك في شيء ، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾ أي ابتداء ﴿حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

قال ابن جرير : حدثنا حميد بن جبير ، حدثنا يعقوب عن هارون عن عبيدة عن أبيه ، عن ابن عباس قال : سأل

موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني . قال : فأبي عبادك أفضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أي رب أي عبادك أعلم ؟ قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى ، قال : أي رب هل في أرضك أحد أعلم مني ؟ قال : نعم قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال : وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التي ينقلت عندها الحوت : قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله ، وانتهى موسى اليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه ؛ فقال له موسى : إني أحب أن أصحبك ، قال إنك لن تطيق صحبتي قال : بل . قال : فان صحبتي ﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ قال : فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه ، قال : وبعث الله الخطاف ، فجعل يستقي منه بمنقاره ؛ فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا الماء ؟ قال : ما أقل ما رزاً . قال : يا موسى ، فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء ، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به ، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ الرَّاقِلُ إِنَّكَ

لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ لَا نُوَاخِذُكَ بِمَا نَسِيتَ وَلَا تَرْهَقُنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر ، أنها انطلقا لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه ، فركبا في السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأتهم عرفوا الخضر ، فحملوما بغير نول ، يعني بغير أجرة ، تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت ، أي دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها ، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرأ عليه ﴿اخرقتها لتغرق أهلها﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل ، كما قال الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾ قال مجاهد : منكرأ . وقال قتادة : عجباً ، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها ، لأنك لم تحط بها خيراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت ﴿قال﴾ أي موسى ﴿لا تواخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد علي ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال وكانت الأولى من موسى نسياناً .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بَعْدَ رِكْبَتِي بَعْدَ نَفْسِي لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ الرَّاقِلُ لَكَ إِنَّكَ

لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكُمْ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصْنِحْ بِنِي لَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٨١﴾

يقول تعالى : ﴿فانطلقا﴾ أي بعد ذلك ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله ، وروي أنه احتز رأسه ، وقيل رضخه بحجر ، وفي رواية اقتلعه بيده ، والله أعلم ؛ فلما شاهد موسى عليه السلام هذا ، أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ولا عملت إنثاً بعد فقتلته ﴿بغير نفس﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي ظاهر النكارة ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول ، فلماذا قال له موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة ، قال ابن جرير : حدثنا عبد الله بن زياد ، حدثنا حجاج بن محمد عن حمزة الزيات عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب قال : كان النبي ﷺ إذ ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم «رحمة الله علينا وعلى موسى لولبت مع صاحبه لأبصر العجب ، ولكنه قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً» .

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا قَابُوا أَن يَضِيفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ

قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَوْ تَسَطَّعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبرا عنها إنهما ﴿انطلقا﴾ بعد المرتين الآيتين ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ روى ابن جريج عن ابن سيرين أنها الأيلة ، وفي الحديث وحتى إذا أتيا أهل قرية لتمامه أي بخلاء ﴿قأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض﴾ إسناد الإرادة ههنا الى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل ، والانقراض هو السقوط . وقوله ﴿فأقامه﴾ أي فرده الى حالة الاستقامة ، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله ، وهذا خارق ، فعند ذلك قال موسى له ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجانا ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ﴿سأنبئك بتأويل﴾ أي بتفسير ﴿ما لم تسطع عليه صبرا﴾

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة ، فقال : إن السفينة إنما خرقناها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ياخذ كل سفينة﴾ صالحة اي جيدة ﴿غصباً﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيره ، وقد قيل إنهم أيتام ، وروى ابن جريج عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائي أن اسم الملك هدد بن بدد ، وقد تقدم أيضاً في رواية البخاري ، وهو المذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة ، والله أعلم .

وَأَمَّا الْفُلُومُ فَكَانَ آبَاؤُهُمْ مُؤْمِنِينَ فَخَشِبْنَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً

وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه حثور . وفي هذا الحديث عن ابن عباس عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال والغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق عن سعيد عن ابن عباس به ، ولهذا قال ﴿فكان آبوا مؤمنين فخشبنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا﴾ اي يحملها حبه على متابعتها على الكفر ، قال قتادة : قد فرح به آبوا حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكها ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فان قضاء الله للمؤمن فيها يكره خيرا له من قضائه فيها يوجب ، وصح في الحديث لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وقال تعالى : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ وقوله ﴿فأردنا أن يبدلها ربها خيرا منه زكاة وأقرب رحما﴾ اي ولداً أذكى من هذا ، وهما أرحم به منه ، قاله ابن جريج . وقال قتادة : أبر بالديه ، وقد تقدم أنها بدلا جارية . وقيل : لما قتله الخضر كانت أمه حاملا بغلام مسلم ، قاله ابن جريج .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا

أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَوْ تَسَطَّعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة ، لأنه قال أولاً ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ وقال ههنا ﴿فكان لغلأمين يتيمين في المدينة﴾ كما قال تعالى : ﴿فكأن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم ، يعني مكة والطائف ، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلأمين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لها . قال عكرمة وقاتدة وغير واحد : وكان تحته مال مدفون لها ، وهو ظاهر السياق من الآية ، وهو

اختيار ابن جرير رحمه الله .

وقال العوفي عن ابن عباس : كان تحته كنز علم ، وكذا قال سعيد بن جبير ، وقال مجاهد : صحف فيها علم ، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك . قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده المشهور : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحارث بن عبد الله اليمصبي عن عياش بن عباس الفسائي ، عن أبي حجرية عن أبي ذر رفعه قال : إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت ، مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ وبشر بن المنذر هذا يقال له قاضي المصيصة . قال الحافظ أبو جعفر العقيلي في حديثه وهم ، وقد روي في هذا آثار عن السلف ؛ فقال ابن جرير في تفسيره : حدثني يعقوب ، حدثنا الحسن بن حبيب بن نذبة ، حدثنا سلمة عن نعيم العنبري وكان من جلساء الحسن قال : سمعت الحسن يعني البصري يقول في قوله ﴿وكان تحته كنز لها﴾ قال لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يجزئ ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وحدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عبد الله بن عياش عن عمر مولى غفرة قال : إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف ﴿وكان تحته كنز لها﴾ قال : كان لوحاً من ذهب مصمت ، مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن عرف النار ثم ضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، عجبت لمن أيقن بالموت ثم أمن ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وحدثني أحمد بن حازم الغفاري ، حدثنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت سمعت صاحبي حماد بن الوليد الثقفي يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى : ﴿وكان تحته كنز لها﴾ قال سطران ونصف لم يتم الثالث : عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح . وقد قال الله ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ قالت وذكر أنها حفظها بصلاح أبيها ، ولم يذكر منها صلاح ، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظها به سبعة آباء ، وكان ناسجاً ، وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافي قول عكرمة أنه كان مالا ، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب ، وفيه مال جزيل أكثر مما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم ، وهو حكم ومواعظ ، والله أعلم .

وقوله ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشغل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة ، لتقر عينه بهم ، كما جاء في القرآن ووردت به السنة . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظها بصلاح أبيها ، ولم يذكر لها صلاحاً ، وتقدم أنه كان الأب السابع ، فإله أعلم . وقوله ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ ههنا أسند الآرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغها الخلق لا يقدر عليه إلا الله ، وقال في الغلام ﴿فأردنا أن يبدلها ربها خيراً منه زكاة﴾ وقال في السفينة ﴿فأردت أن أعيها﴾ فإله أعلم . وقوله تعالى : ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة ، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدي الغلام وولدي الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمري أي لكي أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوته الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ وقال آخرون : كان رسولاً . وقيل : بل كان ملكاً ، نقله الماوردي في تفسيره ، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً ، بل كان ولياً ، فإله أعلم .

وذكر ابن قتيبة في المعارف أن اسم الخضر بلياً بن ملكان بن فالغ بن عامر بن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، قالوا : وكان يكنى أبا العباس ، ويلقب بالخضر ، وكان من أبناء الملوك ، ذكره النووي في تهذيب الأسماء ، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ، ثم إلى يوم القيامة قولين ، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه ، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم ؛ وجاء ذكره في بعض الأحاديث ، ولا يصح شيء من ذلك ، وأشهرها حديث التعزية ، وإسناده ضعيف ، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ ويقول النبي ﷺ يوم بدر «اللهم إن تملك هذه العصاة لا تعبد في الأرض» ويأنه لم ينقل أنه جاء رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه ، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين : الجن والإنس ، وقد قال «لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي» وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف ، إلى غير ذلك من الدلائل .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه

عن النبي ﷺ في الخضر قال وإنما سمي خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهمز من تحته خضراء، ورواه أيضا عن عبد الرزاق ، وقد ثبت أيضا في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال وإنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة ، فإذا هي تهمز من تحته خضراء والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل : المراد بذلك وجه الأرض . وقوله ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعا ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما ان فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال ﴿تسطع﴾ وقبل ذلك كان الاشكال قريبا ثقبلا ، فقال ﴿سأنتيك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ ، فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ وهو أشق من ذلك ، فقابل كلا بما يناسبه لفظا ومعنى ، والله أعلم .

فان قيل : فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب ان المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع ، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون ، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ، وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال : حدثنا ابن حديد ، حدثنا سلمة : حدثني ابن اسحاق عن الحسن بن عمارة عن أبيه عن عكرمة قال : قيل لابن عباس : لم نسع لفتى موسى بذكر من حديث ، وقد كان معه ؟ قال ابن عباس فيها يذكر من حديث الفتى ، قال : شرب الفتى من الماء فخلد ، فأخذته العالم فطابق به سفينة ، ثم أرسله في البحر فانما لتموج به الى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب ، إسناده ضعيف ، والحسن متروك ، وأبوه غير معروف .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَمَعِينَهُ مِنْ شَيْءٍ يَدْعَىٰ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى لبيته ﷺ ﴿ويسألونك﴾ يا محمد ﴿عن ذي القرنين﴾ أي عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة الى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية لا يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف ، وقد أورد ابن جرير ههنا والأموي في مغازيه حديثا أسنده ، وهو ضعيف ، عن عقبة ابن عامر أن نفرا من اليهود جاءوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين ، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الاسكندرية ، وأنه علا به ملك الى السماء ، وذهب به الى السد ، ورأى أقواما وجوههم مثل وجه الكلاب ، وفيه طول ونكارة ، ورفع لا يصح ، وأكثر ما فيه انه من أخبار بني إسرائيل .

والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلاله قدره ، مابقه بتامه في كتابه دلائل النبوة ، وذلك غريب منه ، وفيه من النكارة أنه من الروم ، وإنما الذي كان من الروم الاسكندر الثاني ، وهو ابن فيليس المقدوني الذي تؤرخ به الروم ، فأما الأول فقد ذكر الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وأمن به ، واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام ، وأما الثاني فهو اسكندر بن فيليس المقدوني اليوناني ، وكان وزيره ارسططاليس الفيلسوف المشهور . والله أعلم . وهو الذي تؤرخ من مملكته ملة الروم ، وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور في القرآن ، فكان في زمن الخليل ، كما ذكره الأزرقى وغيره ، وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام ، وقرب إلى الله قربانا ، وقد ذكرنا طرفا صالحا من أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية ، والله الحمد .

وقال وهب بن منبه : كان ملكا ، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين . وقال صفيان الثوري عن حبيب بن ابي ثابت عن ابي الطفيل قال : سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين فقال : كان عبدا ناصحا لله ، فناصره ، فدعا قومه الى الله فضربوه على قرنه ، فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمي ذا القرنين ، وكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن ابي الطفيل سمع عليا يقول ذلك . ويقال : انه سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

وقوله ﴿إنما مكنا له في الأرض﴾ أي أعطينا ملكا عظيما ممكنا فيه من جميع ما يؤق الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والخصارات ، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم انه انما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها . وقوله

﴿وَأَيُّهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وغيرهم : يعني علما . وقال قتادة أيضا في قوله ﴿وَأَيُّهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ قال : منازل الأرض وأعلامها .
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿وَأَيُّهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ قال : تعليم الألسنة ، قال : كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم . وقال ابن هبيرة ، حدثني سالم بن غيلان عن سعيد بن أبي هلال ان معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار : أنت تقول ان ذا القرنين كان يربط خيله بالثرثيا ؟ فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال ﴿وَأَيُّهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ وهذا الذي أنكروه معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار ، فان معاوية كان يقول عن كعب : إن كنا لنبلو عليه الكذب ، يعني فيها يتقله ، لا انه كان يعتمد نقل ما ليس في صحفه . ولكن الشأن في صحفه انها من الاسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلف ، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله ﷺ الى شيء منها بالكيفية ، فانه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله ﴿وَأَيُّهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه من انه كان يربط خيله بالثرثيا غير صحيح ولا مطابق ، فانه لا سبيل للبشر الى شيء من ذلك ، ولا الى الترقى في اسباب السموات ، وقد قال الله في حق بلقيس ﴿وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ان مما يؤتى مثلها من الملوك ، وهكذا ذو القرنين ، يسر الله له الاسباب ، أي الطرق والوسائل الى فتح الاقاليم والرسايق والبلاد والأراضي ، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض واذلال أهل الشرك قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبياً والله أعلم . وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي من طريق قتيبة عن أبي عوانة عن سهاك بن حرب عن حبيب بن حماد قال : كنت عند علي رضي الله عنه وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد .

فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قَلْبًا يَدْعُوا الْقُرْنَيْنَ إِمَامًا أَنْ تُعَذِّبَ

وَأَمَّا أَنْ لَنُخْذَ فِيهِمْ حَسَنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ نُعْرِضُكَ إِلَىٰ رَبِّهِ . فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَإِنَّهُمْ لَحِزَّةَ الْعُسْتِيِّ وَسَنُقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِنَا إِسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس ﴿فاتبع سبياً﴾ يعني بالسبب المنزل ، وقال مجاهد ﴿فاتبع سبياً﴾ منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب ، وفي رواية عن مجاهد ﴿سبياً﴾ قال : طرفي الأرض . وقال قتادة أي اتبع منازل الأرض ومعالمها ، وقال الضحاك ﴿فاتبع سبياً﴾ أي المنازل ، وقال سعيد بن جبير في قوله ﴿فاتبع سبياً﴾ قال : علماً ؛ وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدي ، وقال مطر : معالم وأثار كانت قبل ذلك .

وقوله ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض ؛ وأما الوصول الى مغرب الشمس من السماء فمتعذر ، وما يذكره اصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة ، والشمس تغرب من ورائه ، فشيء لا حقيقة له ، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاف زنادقتهم وكذبهم ، وقوله ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مشتهة فيه لا تفارقه ، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين ، كما قال تعالى : ﴿إني خالقي بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾ أي طين أملس ، وقد تقدم بيانه .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، اخبرنا ابن وهب ، أنبأنا نافع بن أبي نعيم ، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول : كان ابن عباس يقول في عين حمئة ثم فسرها ذات حمئة ، قال نافع : وسئل عنها كعب الأحبار ؛ فقال : أنتم أعلمم بالقرآن مني ، ولكنني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء ؛ وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وغير واحد . وقال ابو داود الطيالسي : حدثنا محمد بن دينار عن سعد بن أوس عن مصدع ، عن ابن عباس عن أبي بن كعب ان النبي ﷺ أقرأه حمئة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : وجدها تغرب في عين حمامية ، يعني حمارة ، وكذا قال الحسن البصري . وقال ابن جرير : والصواب انها قراءتان مشهورتان وأبهما قرأ القارئ فهو مصيب ؛ قلت : ولا منافاة بين معنيهما إذ قد تكون حمارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة في ماء وطين اسود ؛ كما قال كعب الأحبار وغيره .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن الثني ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام ، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله قال : نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال «في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض» قلت : ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون ، وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ، ولعله من كلام عبد الله ابن عمرو من زاملتيه اللتين وجدتهما يوم اليرموك ، والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا حجاج بن حمزة ، حدثنا محمد يعني ابن بشر ، حدثنا عمرو بن ميمون ، أنبأنا ابن حاضر ان ابن عباس ذكر له ان معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية : ما تقرؤها إلا حمئة ، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو : كيف تقرؤها ؟ فقال عبد الله : كما قرأها . قال ابن عباس : فقلت لمعاوية : في بيتي نزل القرآن ، فأرسل إلى كعب فقال له ، اين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ فقال له كعب : سل اهل العربية ، فإنهم أعلم بها . وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطن وأشار بيده إلى المغرب قال ابن حاضر : لو إني عندك لأفدتك بكلام فيه بصيرة في حمئة ، قال ابن عباس : وإذا ماهو ، قلت : فيها نائر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في مخلقه بالعلم واتباعه إياه .

بلغ المشارق والمغارب بيتني
فراى مغيب الشمس عند غروبها
أسباب أمر من حكيم مرشد
في عين ذا خلب وثايط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت : الطين بكلامهم . قال : فما الثايط ؟ قلت : الحمأة . قال : فما الحرمد ؟ قلت : الأسود . قال : فدعا ابن عباس رجلاً او غلاماً فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل . وقال سعيد بن جبير : بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف ، فقرأ «ووجدها تغرب في عين حمئة» فقال كعب : والذي نفس كعب بيده ، ما سمعت احداً يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس ، فإننا نجدتها في التوراة تغرب في مدرة سوداء . وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا إسحاق بن أبي اسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف قال : في تفسير ابن جريج «ووجد عندها قوماً» قال : مدينة لها اثنا عشر ألف باب ، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب .
وقوله «ووجد عندها قوماً» أي أمة من الأمم ، ذكروا انها كانت أمة عظيمة من بني آدم . وقوله «قلنا إذا القرنين إما ان تعذب إما ان نتخذ فيهم حسناً» معنى هذا ان الله تعالى مكنه منهم ، وحكمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيره إن شاء قتل وسسى ، وإن شاء من أوفدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله «أما من ظلم» أي استمر على كفره وشركه بربه «فسوف نعذبه» قال قتادة : بالقتل . وقال السدي : كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا . وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة فتدخل اجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم ، والله أعلم .
وقوله «ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً» أي شديداً بليغاً وجعياً أليماً ، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله «وأما من آمن» أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له «فله جزاء الحسن» أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل «وستقول له من أمرنا يسراً» قال مجاهد : معروفاً .

ثُمَّ أَنْبَأَ سَيِّبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِمْ دِينًا سِوَانَا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا

بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ﴿٩١﴾

يقول تعالى : ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه وإلا أذهم وأرغم آنانهم واستباح أموالهم وأمتعهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم ، وذكر في أخبار بني إسرائيل انه عاش ألفاً وستائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض ، حتى بلغ المشارق والمغارب ، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى : «ووجدها تطلع على قوم» أي أمة لم نجعل لهم من دونها ستراً أي ليس لهم بناء يكتهم ولا أشجار تظلمهم وتسترهم من حر الشمس . قال سعيد بن جبير . كانوا حمرا قصاراً ، مساكنهم الغيران ، أكثر معيشتهم من السمك .
وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا سهل بن أبي الصلت ، سمعت الحسن وسئل عن قول الله تعالى : «لم نجعل لهم

من دونها سترًا ﴿ قال : إن أرضهم لا تحمل البناء ، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه ، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم ؛ قال الحسن : هذا حديث سمرة . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لا تثبت لهم شيئاً ، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب ، حتى إذا زالت الشمس طلعت عليهم ، فلاحدهم أذنان يفرش إحداهما ويلبس الأخرى . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم دونها سترًا﴾ قال : هم الزنج . وقال ابن جرير في قوله ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا﴾ قال : لم يبنوا فيها بناء قط ، ولم يكن عليهم فيها بناء قط ، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر ، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل ، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها : لا تظلمن عليكم الشمس وأنتم بها ، قالوا : لا نبرح حتى تطلع الشمس ، ماهذه العظام ؟ قالوا : هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس هنا فأتوا ، قال : فذهبوا هارين في الأرض . وقوله ﴿كذلك وقد أحنطنا بما لديه خبراً﴾ قال مجاهد والسدي : علما ، أي نحن مطلقون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أهمهم وتقطعت بهم الأرض ، فإنه تعالى ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ .

ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلاً ﴿١٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا

لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٣﴾ قَالُوا إِنَّا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ

سَدًّا ﴿١٤﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١٥﴾ أَوْتَوْا زُبَيْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ

قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأُوتِيهِ أَفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين : ثم اتبع سبباً ، أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين ، وهما جبلان متناحجان ، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيشون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين «ان الله تعالى يقول يا آدم ، لبيك وسعديك ، فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : ما بعث النار ؟ فيقول : من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : ان فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا : يأجوج ومأجوج» ، وقد حكى النووي رحمه الله في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم ، فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء ، وهذا قول غريب جداً ، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد هنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المقتولة ، والله أعلم .

وفي مستند الإمام أحمد عن سمرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك» ، قال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبي الترك ، وقال : إنما سمي هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة ، وإلا فهم أقرباء أولئك ، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة ؛ وقد ذكر ابن جرير هنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له ، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكائهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وأذانهم . وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيداً ، والله أعلم .

وقوله ﴿وجد من دونها قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي : لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً﴾ قال ابن جرير عن عطاء ، عن ابن عباس : أجراً عظيماً ، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا ، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه ، كما قال سليمان عليه السلام ﴿أتمدوئن بحال فما أتاني الله خيراً مما أتاكم﴾ الآية ؛ وهكذا قال ذو القرنين : الذي

أنا فيه خير من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة ، أي بعملكم وآلات البناء ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً أتوني ذبر الحديد﴾ والذبر جمع زبرة ، وهي القطعة منه ، قاله ابن عباس ومجاهد وقناة ، وهي كاللينة ؛ يقال : كل لينة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿قال انفخوا﴾ أي أجاج عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة والضحاك وقناة والسدي : هو النحاس ، زاد بعضهم : المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ ، ولهذا يشبه بالبرد المحر .

قال ابن جرير : حدثنا بشر بن يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج . قال وائتته لي ، قال : كالبرد المحر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال «قد رأيته» هذا حديث مرسل . وقد بعث الخليفة الراضي في دولته بعض أمرائه وجهاز جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه ويتعوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن ملك إلى ملك ، حتى وصلوا إليه ورأوا بناء من الحديد ومن النحاس ، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً وعليه أفتال عظيمة ، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك ، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له ، وأنه عال منيف شاق لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال ، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين ، وشاهدوا أهوالاً وعجائب ؛ ثم قال الله تعالى .

فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَعْمَلُوا لِنَقْبٍ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعَدْرِي جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وَعْدِي حَقًّا

﴿٩٨﴾ وَرَكَابَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمْوجُ فِي بَعْضٍ وَيَفْجِعُ فِي الْأُصُورِ لِيُجَمِّعَهُنَّ مَعًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج : إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه ، قابل كلا بما يناسبه ، فقال ﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه ؛ فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة ، حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله فيبعثني فيعودون إليه وهو كهيبته حين تركوه ، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون المياه ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيبته الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها ، قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم» ورواه أحمد أيضاً عن حسن هو ابن موسى الأشهب عن سفيان عن قتادة به .

وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : حدث أبو رافع وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة ، ثم قال : غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، وإسناده جيد قوي ، ولكن منته في رفعه نكارة ، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته ، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون غداً نفتح ، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان ، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون كذلك فيصبحون وهو كما كان ، فيلحسونه ويقولون غداً نفتح ، ويلهمون أن يقولوا إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقه فيفتحونه ، وهذا متجه ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب ، فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه ، فحدث به أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه ، والله أعلم .

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ومن نكارة هذا المرفوع قول الإمام أحمد حدثنا : سفيان عن الزهري عن عروة ، عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، عن أمها أم حبيبة عن زينب

بنت جحش زوج النبي ﷺ - قال سفیان أربع نسوة - قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه ، وهو محمر وجهه ، وهو يقول «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلق ، قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال «نعم إذا كثر الخبيث» هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد ، منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان ، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده ، كلهن يروي بعضهن عن بعض ، ثم كل منهن صحابية ، ثم ثنتان ربيتان ، وثنتان زوجتان رضي الله عنهن .

قد روى نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً ، فقال البزار : حدثنا محمد بن مرزوق ، حدثنا مؤمل بن إساعيل ، حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين ، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به ، وقوله «قال هذا رحمة من ربي» أي لما بناه ذو القرنين «قال هذا رحمة من ربي» أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ، «فإذا جاء وعد ربي» أي إذا اقترب الوعد الحق «جعلهم دكاء» أي ساواها بالأرض ، تقول العرب : ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويا لاستنام لها ؛ وقال تعالى : «فلما تجلج ربه للجبل جعله دكاء» أي مساوياً للأرض .

وقال عكرمة في قوله «فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء» قال : طريقاً كما كان ، «وكان وعد ربي حقاً» أي كائناً لا عمالة . وقوله «وتركتنا بعضهم» أي الناس يومئذ ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم ؛ وهكذا قال السدي في قوله «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال : ذاك حين يخرجون على التامس ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، كما سيأتي بيانه عند قوله «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون» واقترب الوعد الحق الآية ؛ وهكذا قال مهنا «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال : هذا أول يوم القيامة «ثم نفتح في الصور» على أثر ذلك «فجمعناهم جمعاً» وقال آخرون : بل المراد بقوله «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال : إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن .

وروى ابن جرير عن محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن هارون بن عنترة ، عن شيخ من بني فزارة في قوله «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال : إذا ماج الإنس والجن قال إبليس : أنا أعلم لكم علم هذا الأمر ، فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض ، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض ؛ فيقول : ما من محيص ، ثم يظعن يمينا وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض فيقول ما من محيص ، فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كالشراك فأخذ عليه هو وذريته ، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار ، فأخرج الله خازناً من خزان النار ، فقال : يا إبليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك ، ألم تكن في الجنان ؟ فيقول : ليس هذا يوم عتاب ، لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبد مثلاً أحد من خلقه ؛ فيقول ؛ فإن الله قد فرض عليك فريضة ؛ فيقول : ما هي ؟ فيقول بأمرك أن تدخل النار فيتلكأ عليه ، فيقول : به وبذريته بجناحيه ، فيقذفهم في النار ، فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جنى لركبته ، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به ؛ ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب عن هارون عن عنترة ، عن أبيه عن ابن عباس «وتركتنا بعضهم يومئذ يموج في بعض» قال : الإنس والجن يموج بعضهم في بعض .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني ، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات ، حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا المغيرة بن مسلم عن أبي إسحاق عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم ، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من وراثهم ثلاث أمم : تاويل وتاييس ومنسك» هذا حديث غريب ، بل منكر ضعيف .

وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس عن أبيه ، عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاءوا ، وشجر يلقحون كما شاءوا ، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً» . وقوله «ونفتح في الصور» والصور كما جاء في الحديث : قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرائيل عليه السلام ، كما قد تقدم في الحديث بطوله ، والأحاديث فيه كثيرة . وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وابي سعيد مرفوعاً «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته واستمع متى يؤمر؟» قالوا : كيف نقول ؟ قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» . وقوله «فجمعناهم جمعاً» أي أحضرنا الجميع للحساب «قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» «وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاوٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠٢﴾

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم ، أي يبرزها لهم ويظهرها ليراها ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمة والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك» ثم قال مخبراً عنهم «الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري» أي تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال «ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين» وقال ههنا «وكانوا لا يستطيعون سماعاً» أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه ، ثم قال «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء» أي اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك ويتفعمون به «كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا» ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٥﴾

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنَّا تَبَتُّرْتُمْ بِهِمْ وَلَقَدْ آتَيْنَاهُم مَّا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ

جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٨﴾

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عمرو عن مصعب قال : سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً» أهم الحرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا عمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين . وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء ، بل هي أعم من هذا ، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول وهو محطىء وعمله مردود ، كما قال تعالى : «وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية» وقال تعالى : «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً» وقال تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» وقال في هذه الآية الكريمة «قل هل ننبئكم» أي نخبركم «بالأخسرين أعمالاً» ثم نسرهم ، فقال «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا» أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» أي يمتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون .

وقوله «أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه» أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله ، وكذبوا بالدار الآخرة «فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً» أي لا تنقل موازينهم لأنها خالية عن الخير . قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا المغيرة ، حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «لبيأت الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» - وقال - أقرءوا إن شئتم «فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً» وعن يحيى بن بكير عن مغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبي الزناد مثله ، هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً ، وقد رواه مسلم عن أبي بكر محمد ابن إسحاق عن يحيى بن بكير به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل الأكل الشروب العظيم ، فيوزن بحبة فلا يزنها» قال وقرأ «فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً» وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي الصلت عن أبي الزناد ، عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعاً ، فذكره بلفظ البخاري سواء . وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا العباس بن محمد ، حدثنا عون بن عمارة ، حدثنا هاشم بن حسان عن واصل عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله

ﷺ ، فاقبل رجل من قريش يخطر في حلة له ، فلما قام على النبي ﷺ قال يا بريدة هذا من لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً ثم قال : تفرد به واصل مولى أبي عنسة ، وعون بن عمارة وليس بالخافظ ولم يتابع عليه .
وقد قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن سمرة عن أبي يحيى ، عن كعب قال : يؤق يوم القيامة برجل عظيم طويل ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، اقرعوا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ . وقوله ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا ، استهزوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٧٨﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، أن لهم جنات الفردوس ، قال مجاهد : الفردوس هو البستان بالرومية . وقال كعب والسدي والضحاك : هو البستان الذي فيه شجر الأعتاب . وقال أبو أمامة : الفردوس سرة الجنة ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ؛ وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ ﴿الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها﴾ . وهكذا رواه إسحاق بن مسلم عن الحسن عن سمرة مرفوعاً وروي عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه روى ذلك كله ابن جرير رحمه الله ؛ وفي الصحيحين وإذا سألتهم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تنفجر أنهار الجنة . وقوله تعالى : ﴿نزلًا﴾ أي ضيافة ، فإن النزول الضيافة . وقوله ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿لا يبغون عنها حولا﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ولا يجنون مواها ، كما قال الشاعر :

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً
سواها ولا عن حبا تحول

وفي قوله ﴿لا يبغون عنها حولا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنأً ولا رحلة ولا بدلاً .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه ، لنفذ البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر ، ثم آخر وهلم جرا بحور تمدد ويكتب بها ، لما نفذت كلمات الله ، كما قال تعالى : ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ يقول لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله ، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام ، وفي ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا ينفذها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يبني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يبني على نفسه ، ان ربنا كما يقول وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَّنْ كَانَ رِجْوَ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُتْرَكَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٠﴾

رَبِّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٠﴾

روى الطبراني من طريق هشام بن عمار عن إسحاق بن عمار ، عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت ، يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿قل﴾ هؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ فمن زعم أني كاذب فليات بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتكم من قصة اصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وإنما

أخبركم ﴿إنما الهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزائه الصالح فليعمل عملاً صالحاً أي ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر بن عبد الكريم الجزري عن طاوس قال : قال رجل يا رسول الله إني أفتأ المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد . وقال الأعمش : حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أنبئني عما أسألك عنه . أرايت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويصوم ، يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويتصدق ، يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويحب أن يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ، فقال عبادة : ليس له شيء ، إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا كثير بن زيد عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه ، عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ ؛ فنبئت عنده تكون له الحاجة أو يطرقة أمر من الليل فبعضنا ، فكثر المحبسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال ﴿ما هذه النجوى؟﴾ قال قلنا تبنا إلى الله أي نبي الله ، إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي قال قلنا بل ، فقال «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد يعني بن بهرام قال : قال شهر بن حوشب : قال ابن غنم : لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء ، لقينا عبادة بن الصامت فأخذ يميني بشماله ، وشمال أبي الدرداء بيمينه ، فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجى ، والله أعلم بما نتناجى به ؛ فقال عبادة بن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثيغ المسلمين ، يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ ، فأعاده وأبداه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزله عند منزله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت . قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضي الله عنه وعوف بن مالك فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول «من الشهوة الخفية والشرك» فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرا ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يفس أن يعبد في جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد ؟ فقال شداد : أرايتكم لو رايتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق ، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك ؛ فقال شداد فإني سمعت رسول الله (ص) يقول من صلى يراني فقد أشرك ومن صام يراني فقد أشرك ومن تصدق يراني فقد أشرك قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد إليه إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيصل ما خلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد عند ذلك : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي من أشرك بي شيئاً ، فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني» .

[طريق أخرى لبعضه] قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني عبد الواحد بن زياد ، أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني ، سمعت رسول الله يقول «أتخوف على أمي الشرك والشهوة الخفية» قلت : يا رسول الله أتشرك أم لك من بعدك ؟ قال «نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعياهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه» ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان عن عبادة بن نسي به ، وعبادة فيه ضعف ، وفي سماعه من شداد نظر .

[حديث آخر] قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا الحسن بن علي بن جعفر الأحمر ، حدثنا علي بن ثابت ، حدثنا قيس بن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله يوم القيامة : أنا خير شريك من أشرك بي أحداً فهو له كله ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت العلاء يحدث عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ برويه عن الله عز وجل أنه قال «أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري ، فأنا بريء منه ، وهو للذي أشرك» تفرد به من هذا الوجه .

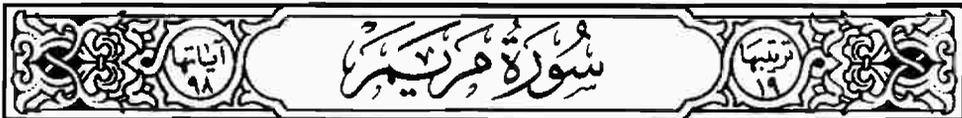
[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا الليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال «الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا ، فانظروا هل تجلبون عندهم جزاء» .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، أخبرنا عبد الحميد يعني ابن جعفر ، أخبرني أبي زياد بن ميناء عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ، وكان من الصحابة ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً يقول ﷺ «فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث محمد وهو البرساني به .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا بكار ، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من سمع سمع الله به ، ومن رأى رأى الله به» وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال «من يراني يراني الله به ، ومن يسمع يسمع الله به» .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة ، حدثني عمرو بن مرة قال : سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «من سمع الناس بعمله سمع الله به ، ساء خلقه وصغره وحقره» فدرت علينا عبدالله : وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي ، حدثنا الحارث بن غسان ، حدثنا أبو عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف محتمة ، فيقول الله : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي» ثم قال : الحارث بن غسان روى عنه جماعة وهو ثقة بصري ، ليس به بأس . وقال وهب : حدثني يزيد بن عياض عن عبد الرحمن الأعرج ، عن عبدالله بن قيس الخزازي أن رسول الله ﷺ قال «من قام رياء وسمعة ، لم يزل في مقت الله حتى يجلس» . وقال أبو يعلى : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص عن عوف بن مالك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو ، فذلك استهانة استهان بهاربه عز وجل» وقال ابن جرير : حدثنا أبو عامر إسحاق بن عمرو السكوني ، حدثنا هشام ابن عمار ، حدثنا ابن عياش ، حدثنا عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية «فمن كان يرجو لقاء ربه» الآية ، وقال : إنها آخرة آية نزلت من القرآن وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة بحكمة فاشتبته ، ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا أبو قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ في ليلة «فمن كان يرجو لقاء ربه» الآية ، كان له من النور من عدن أبين إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة» غريب جداً .



وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .